الفصل الثانى
تأملات حول الإنسان
فى ضوء تعاليم الإسلام

تمهيد :

الموضوع الذى نريد أن نتحدث عنه فى هذا الفصل يعد من القضايا الكبرى فى هذا الوجود[1]، بل لا نبالغ ولا نعدو قول الحق إذا قلنا إن هذا الموضوع هو قضية القضايا فى هذا الوجود. فالإنسان هو محور الكون وهو سيد فى هذا الكون، فكل شىء فى هذا الوجود مسخر له، والديانات كلها جاءت من أجله، والقرآن الكريم كله يدور حوله، فكل ما فى القرآن الكريم إما حديث عن الإنسان أو حديث إلى الإنسان. فالوحى السماوى كله قد اتجه بالخطاب إليه. فلماذا إذن لا يكون موضوع الإنسان هو قضية القضايا فى هذا الوجود؟ إنه بدون الإنسان لا توجد قضية ولا توجد هناك مشكلة. انظروا إلى الملائكة عندما أخبرهم الله سبحانه وتعالى بأنه يريد أن يخلق البشر، ماذا قالوا: **﴿قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾**[2]. فالعالم فى منطق

---

(١) لقد كان هذا الموضوع فى الأصل محاضرة ألقيناها منذ بضع سنوات فى المركز العام للشبان المسلمين بالقاهرة. وننشرها هنا دون تعديل أو إضافة.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠.

الملائكة بدون الإنسان يعد واحة سلام، ليس فيه مشكلة أو قضية طالما لم يكن هناك إنسان. ولكن أى عالم هذا الذى لا يستطيع أن يعى نفسه ولا حيلة له من أمر نفسه؟ إنه يكون عالماً لا طعم له ولا لون له. ومن هنا كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يخلق كائناً يدرك نفسه ويدرك ما حوله ويدرك خالقه. وبذلك يكون للوجود معنى، ويكون وجود الإنسان من أجل هدف حددته الإرادة الإلهية. وهو العبادة لله وحده:

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1].

والعبادة تفترض معرفة العابد لمعبوده. فهى عبادة قائمة على وعى وإدراك، وقائمة على اختيار من جانب العابد لمعبوده. ومن هنا فإن أول القضايا التى يجب أن تبحث والتى ينبغى أن تكون دائما محور البحث هى قضية الإنسان. فكل القضايا الأخرى فى هذا الوجود ليست إلا تفريعات عن هذه القضية. ومن هنا اهتم المفكرون والفلاسفة منذ القدم بهذا الموضوع الكبير. وكل أدلى بدلوه فى هذه القضية الكبرى. فقد وجدنا الفلاسفة منذ القدم يعرِّفون الإنسان بأنه حيوان ناطق، أى كائن عاقل. ووجدنا الأخلاقيين يعرفون الإنسان بأنه حيوان أخلاقى، أى كائن له قيم، فهو الوحيد فى هذا الوجود الذى له قيم يلتزم بها.

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

ووجدنا الاجتماعيين يقولون: الإنسان كائن اجتماعى، ووجدنا علماء الدين يقولون: الإنسان كائن متدين لأنه لا يوجد عى ظهر الأرض كائن لـه هـذه الخاصيـة التـى هـى التديـن إلا الإنسـان. فالإنسان إذن كان ولايزال وسيظل هـو محـور البحـث والتفسـير لدى الفلاسفة والمفكرين ولدى كل الطوائـف مـن جميـع الأديـان المختلفة.

بداية الإنسان:

فماذا كانت البداية؟

البداية – كما نعلم جميعا – كانت عندما خلـق الله سـبحانه وتعالى الإنسان من طين، أى من مادة. ولو كان الأمـر قـد اقتصـر على ذلك لمـا كـانت هنـاك أيـة مزيـة للإنسـان علـى غـيره مـن الكائنات. ولكن الله سبحانه وتعالى أضاف إلى ذلك من روحه هو شيئا آخر لهذا الكائن المادى، وهذا ما تعبر عنه الآيـة الكريمـة: **﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ﴾**[1].

فهو الكائن الوحيد فى هذا الوجـود الـذى نفخ الله فيـه مـن روحه، ونسب ذلك إلى نفسه سبحانه وتعـالى. وقـد كـانت هـذه النفخـة الروحيـة الإلهيـة هـى منـاط التكريـم الـذى حظـى بـه الإنسان.

---

(١) سورة الحجر: الآية ٢٩.

ومن هنا طلب الله سبحانه وتعالى من الملائكة أن يسجدوا لآدم تكريما له، ليس لأنه خلق من طين، ولكن لأن الله سبحانه وتعالى قد نفخ فيه من روحه. ولكن إبليس أبى واستكبر ورفض وقال - كما يقول القرآن الكريم -: ﴿ **أأسجد لمن خلقت طينا** ﴾[1].

فإبليس نظر إلى الجانب المادى فقط، وغفل عن الجانب الآخر - وهو الجانب الروحى - والذى هو مناط التكريم فى الإنسان. ومن هنا كان إبليس إلى يوم الدين هو زعيم الماديين فى كل العصور الذين ينظرون إلى الإنسان نظرة مادية بحتة، ولا يلتفتون إلى الجانب الروحى فيه والذى هو مناط التكريم، وبعد التكريم الإلهى للإنسان بسجود الملائكة له، وبتعليم آدم الأسماء كلها، أهبطه الله سبحانه وتعالى إلى الأرض لحكمة أرادها، ليعمر هذه الأرض بعد أن سلحه بالأدوات التى تعينه على أداء وظيفته فى هذه الحياة حتى يحقق مفهوم العبادة لله وحده فى هذا الوجود.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٦١.

خصائص الإنسان:

ومن هنا امتاز الإنسان بخصائص وميزات لم تتوفر لكائن آخر غير الإنسان. ونختار من بين هذه الخصائص الهامة خمس خصائص:

أولاً: خلافته لله فى الأرض.

ثانياً: تفضيله على جميع المخلوقات.

ثالثاً: تمييزه بالعقل.

رابعاً: تسخير الكون كله من أجله.

خامساً: تمييزه بالحرية وتحمله المسئولية عن هذا الكون.

وفيما يلى بيان ذلك

أولاً: خلافة الإنسان فى الأرض:

أما عن العنصر الأول وهو الخلافة لله فى الأرض فهذا أمر قد نص عليه القرآن الكريم فى قوله:

﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾[1].

فماذا يعنى ذلك بالنسبة للإنسان؟

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٠.

يعنى هذا أن الله إذا كان قد كتب على نفسه الرحمة فإن خليفته ينبغى أن يكون رحيما، ويعنى أن الله إذا كان لا يظلم أحداً فينبغى أن يكون خليفته عادلاً لا يظلم أحدا. وبالعدل والرحمة ينتظم هذا الكون. وإذا كان الله قد كتب لنفسه العزة ولرسوله وللمؤمنين فلا ينبغى لخليفته أن يفرط فى هذه العزة التى كتبها الله له، بل ينبغى عليه أن يصونها ويحافظ عليها ويحميها بكل الوسائل.

ثانياً: تفضيل الإنسان على الكائنات الأخرى:

أما العنصر الثانى وهو تفضيل الإنسان على غيره من الكائنات فإن الله قد كرم الإنسان كما جاء فى قوله تعالى:

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[1].

وهذه الكرامة التى اختص بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة، : فهى حماية إلٰهية للإنسان تنطوى على احترام عقله وحريته وإرادته، وتنطوى أيضا على حقه فى الأمن على نفسه وماله وذريته. ومن أجل ضمان الحماية الإلٰهية للإنسان حددت الشريعة الإسلامية لنفسها مقاصد خمسة لتأكيد هذه الحماية وهى:

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٧٠ .

حفظ النفس وحفظ الدين وحفظ العقل وحفظ المال وحفظ النسل. فهذه المقاصد الخمسة تهدف كلها لحماية الإنسان الذى كرمه الله سبحانه وتعالى. فالنفس الإنسانية لا يجوز الاعتداء عليها بأى حال من الأحوال. وقد جعل الإسلام الاعتداء على فرد واحد من أفراد البشرية بمثابة اعتداء على البشرية كلها، وفى المقابل جعل تقديم الخير لفرد واحد من أفراد البشرية بمثابة تقديم الخير للإنسانية كلها:

﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾[1].

ومن هنا نجد أن هذا التكريم الذى اختص به الإنسان لم يحظ به أى كائن آخر فى هذا الوجود، لأن الإنسان هو الكائن الذى جعله الله سبحانه وتعالى خليفة فى الأرض. ولكن هناك مفارقة تستحق التأمل بعض الشىء، وهى أن الإنسان أحيانا نجده يحس بقوته وجبروته وعظمته، ويعتبر نفسه كأنه ليس هناك من هو أقوى منه فى هذا الوجود مثلما قال فرعون **﴿أنا ربكم الأعلى﴾**[2].

---

(١) ﴿المائدة: الآية ٣٢.

(٢) النازعات: الآية ٢٤.

ولكن فى الجانب الآخر نجد أن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن الإنسان خلق ضعيفا. ويتجلى لنا هذا الجانب الآخر بوضوح إذا عقدنا مقارنة بين الإنسان من جانب وبين الحيوانات الأخرى من جانب آخر. فهناك كثير من الحيوانات تتميز أو تمتاز على الإنسان فى كثير من الأمور التى تجعلها تحافظ على حياتها وعلى وجودها فى حين يفتقد الإنسان كل هذه الأمور التى سأشير إلى بعض منها فيمايلى:

إن قدرة الإنسان محدودة من حيث الجوارح المختلفة. فنحن نجد قدرته مثلا على الإبصار محدودة بالقياس إلى بعض الحيوانات التى تستطيع أن ترى إلى مسافات بعيدة، وقدرته على السمع محدودة أيضاً بالقياس إلى بعض الحيوانات التى تمتد قدرتها على السمع إلى مسافات بعيدة، وقدرته على الشم محدودة كذلك بالقياس إلى بعض الحيوانات التى تستطيع أن تشم إلى مسافات بعيدة. ثم إن طفولة الإنسان طويلة بالقياس إلى بعض الحيوانات التى تستطيع أن تقف على رجليها بعد الولادة بساعات وتعتنى بنفسها. ولكن الإنسان حمله وفصاله ثلاثون شهراً، وبعد ذلك لا يستطيع أن يعتمد على نفسه، بل يظل فى حاجة إلى عناية ورعاية مدة طويلة. وبالإضافة إلى ذلك نجد أن هناك كثيراً من الحيوانات لها مخالب وأنياب تستطيع بها أن

تحمى نفسها وتدافع بها عن وجودها ضد أعدائها فى حين أن الإنسان ليس لديه شىء من ذلك.

وفضلاً عن ذلك فإن كثيراً من الحيوانات أو كلها قد خلقها الله سبحانه وتعالى قادرة على تحمل تقلبات الجو من الحر والبرد، ولكن الإنسان إذا ترك عريانا تحت وطأة التقلبات الجوية فإنه يموت.

وعلى الرغم من هذه المفارقة فقد استطاع الإنسان أن يخضع كل ما فى هذا الوجود لإرادته: استطاع أن يستأنس الحيوانات المفترسة، واستطاع أن يتغلب على كل الصعاب التى صادفته فى هذا الوجود. وذلك بفضل شىء واحد امتاز به على كل أنواع الحيوانات المختلفة وهو العقل الذى وهبه الله سبحانه وتعالى إياه[1].

ثالثاً: العقل الإنسانى:

وبهذا نصل إلى العنصر الثالث من الخصائص التى اختص بها الإنسان وهو العقل. فالعقل الإنسانى - كما سبق أن أشرنا - هو الشىء الذى يمتاز به الإنسان عن جميع الحيوانات والذى

---

(١) راجع: مدخل إلى الفكر الفلسفى لبوخينسكى (ومن ترجمتنا) ص ٩١ وما بعدها - دار الفكر العربى ١٩٩٦م.

به يدرك نفسه ويدرك الكون من حوله ويدرك خالقه. هذا العقل يعد نعمة كبرى من نعم الله على الإنسان فى هذا الوجود. ومن هنا لا يجوز للإنسان أن يعطل العقل عن أداء وظيفته مثلما لا يجوز له أن يعطل جارحة من الجوارح التى أنعم الله بها على الإنسان عن أداء وظيفتها مثل اليد والرجل والعين والسمع والشم.. إلخ فهذه كلها جوارح خلقها الله للإنسان لتؤدى كل منها وظيفة معينة، والعقل خلقه الله تعالى أيضا للإنسان ليؤدى وظيفة معينة، فتعطيله عن أداء وظيفته تعطيل لنعمة من نعم الله تعالى عن أداء وظيفتها. ولهذا يعبر القرآن الكريم عن هؤلاء الذين يعطلون عقولهم عن التفكير ويصمون آذانهم ولا يبصرون، أو لا يريدون أن يبصروا، ما حولهم - يعبر القرآن الكريم عن هؤلاء بقوله:

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام ﴾[1].

ولو كانت الآية قد وقفت عند هذا الحد فقط لكان فى ذلك ظلم للأنعام لأن الأنعام لا تعقل. ولكن الآية استدركت:

﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

فهم أقل مرتبة من الحيوانات لأن الإنسان الذى يعطل عقله عن التفكير هو إنسان تنازل عن إنسانيته. ومن هنا لا يستحق أن يطلق عليه وصف الإنسان لأنه ارتضى لنفسه أن يكون فى مرتبة أقل من مرتبة الحيوان. ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى العقل مسئولية من المسئوليات التى سيسأل عنها الإنسان يوم القيامة:

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾[1].

ولهذا يخبرنا القرآن الكريم بأن الكفار سوف يلومون أنفسهم يوم القيامة لأنهم لم يستخدموا عقولهم فى الدنيا:

﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم ﴾[2].

أى أن عدم استخدامهم العقل الإنسانى فيما خلق من أجله يعتبر ذنبا من الذنوب. ولهذا اهتم الإسلام اهتماما كبيرا جدًا بإزالة كافة العقبات التى تعترض سبيل العقل عن أداء وظيفته. ومهد له الطريق ليمارس وظيفته حتى يقوم بأداء دوره فى هذا الوجود على خير وجه. ومن الأشياء التى اتخذها الإسلام

---

(١) سورة الإسراء. الآية ٣٦.

(٢) سورة الملك: الآيتان ١٠، ١١

كضمانات للعقل الإنسانى ليمارس وظيفته فى هذا الصدد أنه رفض التقليد الأعمى والتبعية الفكرية: رفض الإسلام التقليد الأعمى لأنه يعطل العقل عن أداء وظيفته. ولذلك عندما جاءت الرسالة المحمدية وأعلنها محمد – صلى الله عليه وسلم – لأهل مكة لم يريدوا أن يسمعوا وعطلوا عقولهم رغم أن محمدًا – صلى الله عليه وسلم – كان معروفا بينهم بأنه الصادق الأمين. وقبل أن يعلن رسالته جمعهم وأراد أن ينتزع منهم اعترافا أوليا فقال لهم: لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك كذبا.

وبعد أن انتزع منهم هذا الاعتراف وهو حق وصدق. قال لهم: إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة. وهنا انصرفوا عنه وقالوا: تبا لك ألهذا جمعتنا. ويحكى القرآن الكريم عنهم قولهم:

﴿ حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾[1].

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾[2].

فهنا تقليد أعمى لما كان عليه آباؤهم وأجدادهم دون تفكير. والقرآن يريد منهم أن يفكروا ويتأملوا فيما كان عليه آباؤهم

---

(١) المائدة الآية ١٠٤.

(٢) الزخرف الآية ٢٢.

وأجدادهم. هل ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم حق أم باطل؟ إذا التفتوا وتأملوا قليلا سيجدون أن ما يعبدونه من أصنام يصنعونها بأيديهم لا تضر ولا تنفع. وبالتالى فإنه بالتفكير العقلى الصرف سيتبين للإنسان ذلك.

ونحن نعلم فى هذا الصدد من قصة إبراهيم – عليه السلام – أنه عندما كسر أصنام قومه جاءوه قائلين:

﴿ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾[1].

فاستهزأ بهم إبراهيم قائلا:

﴿ بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾[2].

فالمسألة فى حاجة إلى شىء من التعقل والتفكير. ومن هنا رفض الإسلام التقليد الأعمى. وقال النبى – صلى الله عليه وسلم –: «**لا تكونوا إمعة: (أى مقلدين تقليدا أعمى) إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تسيئوا مثلهم. ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تسيئوا مثلهم**».

---

(١) الأنبياء: الآية ٦٢.

(٢) الأنبياء: الآية ٦٣.

وهكذا أزال الإسلام هذه العقبة الكأداء التى تقف فى طريق العقل الإنسانى وهى التقليد الأعمى، أزالها الإسلام من طريق العقل حتى يستطيع أن يمارس دوره فى هذا الوجود.

أما العقبة الأخرى فتتمثل فى الدجل والشعوذات والخرافات والأوهام، وقد رفض الإسلام ذلك كله وما شاكله لينفسح الطريق أمام العقل الإنسانى. ولذلك وجدنا النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول:

«إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن أهل السموات والأرض لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لن ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لن يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك».

وعندما مات إبراهيم بن محمد - صلى الله عليه وسلم - حزن عليه حزنًا شديدًا. وبعد أن واراه التراب ذرفت عينه. ثم تصادف أن كسفت الشمس فى ذلك اليوم. وهذه ظاهرة طبيعية تحدث فى أوقات محددة بناء على قوانين وسنن كونية معينة. ولكن الصحابة رضوان الله عليهم بحسن نية قالوا: لقد كسفت الشمس مشاركة فى الحزن على موت إبراهيم. وعلى الرغم من شدة حزنه - عليه الصلاة والسلام - على فلذة كبده فإنه لم يرد

أن تمر هذه الحادثة بهذه الطريقة. ووقف فى وجه ذلك بحزم قائلا:

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يكسفان ولا يخسفان لموت أحد ولا لحياة أحد».

فعليكم إذن أيها الناس أن تحكموا عقولكم، فهذه ظواهر كونية، وسنن تسير بقدرة الله سبحانه وتعالى بناء على حسابات دقيقة. ومن هنا لا دخل فيها لموت أحد ولا لحياة أحد. وهكذا لم يترك الإسلام مكانا لأى شكل من أشكال الدجل والشعوذات والخرافات والأوهام، فكلها من الأمور التى تعطل العقل عن أداء دوره فى هذا الوجود.

ومن بين الضمانات الأخرى التى قررها الإسلام لتحرير العقل من القيود التى تعوقه عن أداء دوره تأكيده على مبدأ المسئولية الفردية. فكل إنسان مسئول فقط عما يفعله:

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[1].

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[2].

فليست هناك خطيئة موروثة. فالعقل الإنسانى لا يسير وهو مثقل بأحمال غيره ممن سبقوه، ولا يسأل إلا عما فعله فقط:

---

(١) المدثر: الآية ٣٨

(٢) فاطر: الآية ١٨.

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾[1].

وبذلك يتحرر الإنسان ويتخفف من هذه الأوزار التى تثقل كاهله والتى كان يعتقد بها أناس قبل ذلك.

وأخيرا وليس آخرا نجد أن من بين الضمانات التى اتخذها الإسلام أيضا فى هذا الصدد – لمساعدة العقل الإنسانى على أداء دوره – تحرير المؤمن من الخوف من أية سلطة دنيوية أيا كانت فى هذا الوجود لأن الله كتب له العزة التى كتبها لنفسه ولرسوله:

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[2].

والنبى – صلى الله عليه وسلم – يقول فى حديث شريف:

«اطلبوا الأشياء بعزة الأنفس فإن الأمور تجرى بالمقادير».

ومن هنا فإذا شعر المسلم بأنه متحرر من الخوف ومن عقدة الخوف فإنه يستطيع أن ينتج ويبدع ويبتكر وينفع نفسه، وينفع مجتمعه، ويكون عضوا نافعا فى هذا الوجود. هذه الضمانات التى اتخذها الإسلام لمساعدة العقل الإنسانى لأداء دوره فى هذا العالم على أكمل وجه لا ينبغى أن تغيب عن الأذهان على

---

(١) الإسراء: الآية ٣٦.

(٢) المنافقون: الآية ٨.

الإطلاق، بل ينبغى أن تكون حاضرة دائما أمام أعين الناس ومستقرة فى أذهانهم.

رابعا: تسخير الكون للإنسان:

أما العنصر الرابع فإنه يتمثل فى تسخير الكون للإنسان. فالله سبحانه وتعالى قد سخر هذا الكون للإنسان، وللإنسان وحده. ونحن نجد ذلك فى آيات كثيرة. يقول القرآن الكريم:

﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾[1].

ويقول:

﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[2].

وفى آية أخرى يقول:

﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾[3].

ولا تعنى هذه الآية أن ننظر إلى السموات والأرض بقصد أن نتفرج عليها ثم نفتح أفواهنا دهشة من عظمتها. ولكن لنتأمل

---

(١) النحل. الآية ١٢

(٢) الجاثية: الآية ١٣

(٣) يونس. الآية ١٠١.

فى السموات والأرض ونسخَّر كل ما فيهما لخدمة البشرية، لأن الله سبحانه وتعالى أراد للإنسان أن يعمر هذا الكون لا أن يخربه. فهذه مهمة الإنسان فى هذه الحياة.

ومن هنا فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان كل ما فى هذا الكون كما تشير إلى ذلك تلك الآية الكريمة المعبرة التى نقرؤها ولا نقف عندها:

﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[1].

فإننا ينبغى أن نتوقف عند عنصر التفكير الذى ورد فى نهاية الآية:

﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[2].

فهذا العنصر ضرورى وجوهرى، لأن الله إذا كان قد سخَّر لنا هذا الوجود، فلا ينبغى أن نقف منه موقف اللامبالاة، بل يجب أن يكون لنا منه موقف إيجابى، وموقفنا الإيجابى من هذا الكون يتمثل فى دراسته والنظر فيه بالعلم والفهم والتعقل حتى نستطيع أن نبتكر ونبدع ونخوض أعماق البحار والفضاء كما يفعل غيرنا، فالمسلمون الذين لديهم هذه التعاليم لا يجوز أن

---

(١) الجاثية. الآية ١٣

(٢) الجاثية الآية ١٣

يكونوا سلبيين. وهذه الآية وحدها كانت كافية لتجعل الأمة الإسلامية فى مقدمة الأمم فى مجال الابتكارات والاختراعات فى كل مجال فى هذا الوجود، فى الأرض وفى السماء. ولكن القرآن الكريم لم يعد لدى الكثيرين كتاباً نتدبر آياته، بل أصبح الآن – للأسف الشديد – كتاباً نقرأ به على الأموات ونصنع منه الأحجبة ونطرب لتطريب المقرئين بآياته، مع أن القرآن الكريم جاءنا لنتدبر آياته. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[1].

فالتعبير بقوم يتفكرون فى الآية السابقة أمر جوهرى ينبغى ألا يغيب عن الأذهان على الإطلاق لأن هذا يمكن أن يؤدى بنا فى النهاية إلى أن نرتقى بفكرنا ونرتقى بأفهامنا ونرتقى بالجانب المادى من ناحية أخرى. ولذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[2].

خامساً: الحرية والمسئولية:

أما العنصر الأخير وهو الحرية التى منحها الله سبحانه وتعالى للإنسان فإنها مرتبطة بالمسئولية. والمسئولية هى مهمة

---

(١) سورة محمد: الآية ٢٤.

(٢) سورة فصلت: الآية ٥٣.

الإنسان الكبرى فى هذا الوجود، ولذلك عندما عرض الله سبحانه وتعالى الأمانة وهى أمانة التكليف والمسئولية على السموات والأرض والجبال أبين أن يحملنها وأشفقن منها. ولكن الإنسان وحده هو الذى تقدم ليحمل هذه الأمانة، وحملها الإنسان. وهذه مسئوليته. فالإنسان مسئول عن هذا الكون. فإذا كان خليفة الله فى الأرض فهو مسئول عن هذا الكون وهو سيد فى هذا الكون.

فالله سبحانه وتعالى سيد هذا الكون لأنه هو الذى خلقه، ولكنه سبحانه أراد للإنسان أن يكون سيدا فى هذا الكون. ومن هنا فالمسئولية لا تقوم إلا على أساس من الحرية. فبدون الحرية لا مسئولية. ولا تكليف، لا تكليف بشىء ولا ثواب ولا عقاب على شىء على الإطلاق.

والمسئولية كما نعلم دوائر متعددة متشابكة. وكل إنسان مسئول: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» كما يقول الحديث الشريف. وكل إنسان منا مسئول مسئولية مباشرة عن نفسه أولا ثم تتسع الدائرة بعد ذلك لتشمل أسرته ومجتمعه ومسئوليته حتى عن العالم كله بمعنى معين. أما مسئوليته عن نفسه فإن الحديث الشريف يقول:

«لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل به».

عن عمره فيما أفناه: هذه إشارة إلى قيمة الوقت لأن العمر هو الزمن المحدد، هو الفترة الزمنية التى يعيشها الإنسان.

فكل دقيقة وكل لحظة من لحظات حياة الإنسان هو مسئول عنها. فاللحظة التى تنقضى لا تعود مرة أخرى على الإطلاق. ومن هنا ينبغى على الإنسان أن يحافظ على وقته. وقد كان العرب قديما يقولون: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، وكانوا يقولون أيضا: الوقت من ذهب، ولكن الوقت لدينا الآن أصبح أرخص من التراب. وقد كان جمال الدين القاسمى وهو عالم من علماء دمشق فى نهاية القرن الماضى، كان يقف أمام المقاهى المكتظة بالزائرين الذين ينفقون أوقاتهم فيما لا يعود عليهم لا بنفع ولا بفائدة، ويهز رأسه عجبا ويقول: «لو أن الوقت كان مما يباع ويشترى لكنت قد اشتريت من هؤلاء الناس جميعا أوقاتهم» وذلك لينفقها فيما يفيد.

خاتمـــة

والآن، ما الذى يمكن أن نستفيده من ذلـك كلـه فـى حياتنا المعاصرة؟ نحن اليوم فى أشد الحاجة إلى الاستفادة من كل هذه التعاليم الإسلامية فى تحديد مكانة الإنسان ودوره فى هذا الكون ومسئولياته عن هذا الكون حتى نعيد للإنسان المسلم كرامته التى أهدرت وحقوقه التى اعتدى عليها. إنه لم يكن من قبيل المصادفة أن تتحدث الآيات الخمس الأولى من الوحى القرآنى عن الإنسان والعلم الذى يتسلح به الإنسان:

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[1].

فهذه الآيات الخمس الأولى ركزت الحديث على الإنسان وقضية الإنسان وعلم الإنسان، باعتبار أن ذلك هو المهمة الأساسية للإنسان. ولذلك علم الله آدم الأسماء كلها قبل أن يهبطه إلى الأرض. وهذه إشارة إلى العلم الذى تسلح به آدم ليستطيع أن يعمر الأرض التى أهبط إليها.

فهل يعى المسلمون ذلك مرة أخرى؟ هل يفيقون من غفلتهم بعد أن فاتهم قطار التقدم؟

---

(١) سورة العلق: الآيات ١ - ٥

إن الإنسان إذا لم يكن مادة فقط فلا يجوز له أن يتقاصر، بل يعلو ويرتفع ويسمو بنفسه وبطاقاته وقدراته حتى يحقق الهدف من خلق الله سبحانه وتعالى له فى هذا الوجود. وهو هدف العبادة لله وحده:

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1].

مع الأخذ فى الاعتبار أن العبادة ليست مجرد أداء للشعائر الدينية المفروضة فقط، وإنما العبادة تشمل بالإضافة إلى ذلك كل عمل يقوم به الإنسان فى هذه الحياة أيا كان هذا العمل دينيا أم دنيويا طالما قصد به الإنسان وجه الله سبحانه وتعالى وجلب المصالح للناس ودفع المضار عنهم.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل..

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.